الموازنة

بين الالعوبة الالهية ورسالة الغفران

— او —

بين ابي العلاء المعري ودانتي شاعر الطليان

= ٦ =

ووقع منذ سنة ١٣٠٠ حتى سنة ١٣٠٣ اختلافات سياسية في مدينة فلورنسا عقبها اضطراب وثورات اهلية ، نُفيَ في إثرها دانتي في جملة ستمائة رجل من مواطنيه ، حُكم على كثير منهم بالقتل .

وعقب هذه الحادثات كان يتنقل شريداً من مدينة الى أخرى لايملك نقيراً وهو يترقب العودة الى وطنه ترقب الصائم هلال العيد ، وقد أتيح له اول ملجإ لجأ اليه عند رجل من كبراء لمباردية ، ثم انتقل الى مدينة بادوا ووجد له عملاً عند احد أمرائها ، اما رحيله الى باريس فأكثر المنقبين على انه في نحو تلك المدة اي سنة ١٣١٠ ومنذ ذلك التاريخ نزع عن السياسة كما يرى الناقد في تتبع أغنياته لذلك العهد ، وأقلع عن الطعن في وطنه ، بعد ان كان يهجو من حكم في نفيه عنه ويحنُّ اليه اشد الحنين ، والسبب في ذلك انه كان مشتغلاً يومئذ بالمطالعة والدرس المتواصلين ، وقد ساعده على التفرغ لها اكتسابه عطف وصداقة احد العظماء ، ثم حدث في ذلك التاريخ من الأحداث السياسية ما أنعش فؤاد دانتي وجدّد في نفسه أمل العودة الى وطنه ، ولكن لم يكد يهبُّ نسيم ذلك الأمل ، حتى جرت الرياح بما أبدل منه الرجاء بالخيبة وقطع أوصال تلك الآمال ، فاستعاذ باليأس فأوحى اليه قصيدة هجا بها وطنه وسكانه وتوعدهم بنقمة امبراطور المانيا هنري السابع وشفعها بثانية حرّض بها الامبراطور على اكتساح فلورنسا ، واستنزل صواعق غضبه عليها وعلى من فيها قتلاً ونفياً وتعذيباً . غير ان الامبراطور ارتد عنها بالفشل ومات على أثر جراحه حزيناً غريباً ، فرشقت حكومة فلورنسا دانتي وأولاده بحكم القتل جواباً على قصيدتيه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وراح بعد ذلك ينتقل من بلد الى بلد ، وهو يتجلد على مضض البلاء وهل يدفع البلاء تجلّدٌ او تجلّد ، حتى دعاه احد علماء النحو من مدينة بولونيا للقدوم اليها — سنة ١٣١٨ — ليعقد على رأسه الاكليل الشعري ، ولكنه كان يتمنى ان يناله في وطنه فلم يُقسّم له ذلك اذ قضى في الرابع عشر من شهر ايلول للسنة الحادية والعشرين بعد الثلاثمائة والالف في بلدة راڤين وهو في السادسة والخمسين من العمر .

هذا مجمل ماوقف عليه المؤرخون ، وانتخله المحققون والنقادون ، من ترجمة هذا الشاعر الكبير ، وهي ادنى ان تكون قصة قائد جيش او وزير ، طمح ببصره الى الرئاسة ، وجنحت به نفسه الى منازع السياسة ، بل تاقت الى التشبه بالاولياء ، ومحاكاة الفلاسفة والانبياء — وسنورد بعد هذا مايؤيد قولنا — .

على انه وان عُدّ أشعر شعراء الطليان ، فلم يكن مبتدعاً بل كان في كل ما كتبه مطرّساً على آثار السلف ، طابعاً بمعانيه على غرار من تقدّمه ، وانما عُدّ أشعر شعرائهم ، لانهم لم يكونوا ينظمون الشعر العالي الطبقة عندهم الا باللاتينية .

وكان اول مانظمه الاغاني وذلك باللغة الطليانية ، وهي لعهده اللغة العامية في توسكانا ولومبارديا وسائر شيشيليا ، وكانت الاغاني في القرن الثالث عشر عندهم أحب شعر لدى جماعات الاكابر وكانوا يعدّونها أسمى أنواع الشعر ، وكانت طريقتهم في الغزليات شبيهة بغزل المتصوفة عند العرب الا انهم كانوا يصرّحون بروحانية المحبوب وقدسيته ، فكان شعر الصوفيين عندنا في صفة المحبوب وصفاً لبس من ثياب الغرام البشري جلبابا ، واتخذ له من ستور الظنون و براقع الخيال حجابا ، وهو أفعل في النفوس وأحب الى القلوب وأطرب في المسامع من شعرهم ذاك المصبوغ بصبغة العبادة ، بل هو لحن ديني لا يطرق السمع حتى تحسب نفسك قائماً في احدى الكنائس بين الشموع والمباخر والبرانس والفلانس . واليك تعريب بيت لشاعر من معاصري دانتي : « أيها الوجه الملكي الآتي من السماء لنشر السلام ، ومن طبع عليه آله الحب كل فضيلة .

وكانوا يقسمون العشق الى مراتب و يطرقون في وصفه أبواب الفلسفة وغيرها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من العلوم ، ويحون في تبويبه وتقسيمه نحو الالفيات النحوية عندنا وغيرها من الأراجيز العلمية .

وكانت أغاني دانتي في اول امره غزلية اي مصبوغة بصبغة العشق البشري ، ثم نحا تدريجًا نحو التعبد ، وشرح بكتيّب نثري أغانيه ، فكان شرحه هذا ألغازاً ومعميات مغلقة ، بيد انه نال به شهرةً لم ينلها بكل أناشيده ، وليس ذلك بالمستغرب بين قوم لم تختمر فيهم ملكة المعارف ، وعدد أدعياء الادب أضعاف العدد الضعيف من الراسخين في العلم ، فكم بيننا من يتفاصح اليوم بامثال : أمررت مخصرتي ، واستنض القريحة ، وارتمض القلب ، وحبذوه وحبذناه ، وغضب الطبيعة الحانقة ، الى مئات من أمثال هذا الهذيان والخطأ الفاحش وكم بيننا من يقلد هؤلاء ومن يتمنى ان يكتب على هذا المثال المعمى المبهم المخلوط اي ان يكتب مالا يفهمه هو نفسه ولا يستطيع وصفه وتعبيره ، وانما هو عاشق التخييل او الوهم او المجاز مفهوماً او غير مفهوم ، ولكنه يفضّل غير المفهوم على سواه وهو لا يدري سبب هذا التفضيل ، وهذا سرٌّ آخر من أسرار هؤلاء المؤلفين والكتبة وأشياعهم ، وقد كدنا نحيد عن موضوع كلامنا .

وترتسم الصنعة على شعر دانتي الغزلي كله حتى يُرى انه يتعمّد التلبّس بلباس الهائمين كل الهيام ، ولهذا قال كثير من ناقدي شعره انه كان يحتذي طريقة بعض الشعراء المشهورين بعهده او من تقدمهم وانه لم يبلج العشق فؤاده ولعل هذا الحكم جائر . ونحن في نقدنا هذا لا نروم ان ننظر في كل ما قالوه نقّاده ، بل نحن في نقدنا وموازنتنا هذه نقول ما لم يقولوه ، وهو احتذاء أسلوب شاعرنا المعري في رسالة الغفران ، بل سرقة موضوعه وتخلفه عنه في السمو والبيان .

وقد بسطنا قبيل هذا شأن رواج العلوم وانبساط المعارف عند العرب في الشرق والغرب قبل مولد دانتي وما قاله مؤرخو الفرنج أنفسهم عن كثافة سحب الجهل عندهم في تلك القرون ، وان من كان يريد التعمق في العلوم عندهم ، كان يتحتم عليه ان يقصد مدرسة قرطبة فلا عجب بعد هذه الشهادة ، اذا ما قصدها دانتي ودرس العربية فيها ، وان كان لم يقل بذلك أحد من مترجميه ، اذ جميع الذين ترجموه نقلوا عن بوكاتشه وهذا لم يعلم من امر دانتي شيئاً الا بعد وفاته في هجرته بسنين كثيرة اذ كان منتهى بحثه عن أحواله في زوايا دور الكتب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ودكاكين بيعها ، وسؤال من كان حيًا من عارفيه بعد وفاته بثلاثين سنة على الاقل ، ومثل هذا البحث في مثل ذلك العصر لا يعوّل كثيراً عليه عند الناقد النزيه .

وهب انه لم يدرس العربية — وهو ما لنا عليه غير ماتقدم من الادلة في سرقة رسالة الغفران — اما أوضحنا كيف كانت تُترجم كتب العلوم وآدابها من العربية الى اللاتينية بشهادة مؤرخي تلك القرون ؟ فهل يعقل ان دانتي لم يقف على كثير من تلك الكتب ومن جملتها هذه الرسالة الشعرية وهو أشعر شعراء الطليان .

اما الأُلوهية فهي الملحمة التي اشتغل بتأليفها كل المدة الأخيرة من حياته ، وقد ابتدأ بنظمها فيما ظهر للمحققين نحو سنة ١٣١٠ وقد يكون نظم كثيراً منها قبل ذلك التاريخ ، وهو لم يسمها الأُلوهية الآلهية ، بل الالوهية وانما نعتها بالالهية كان بعد موته ، ولا أدري من هو اول من نعتها بالآلهية .

وأقبل دانتي على دراسة اكثر علوم عصره ، ولاسيما الفلسفة الا انه جعل فلسفته خاضعة لعلم اللاهوت او مزيجاً منه ، او هي علم الكلام عند الاسلام ، وكان متشبعاً من قراءة التوراة وغيرها من كتب الدين ، وكان كثير العصبية للغته الطليانية ، شديد التحمس في دينه قوي الاعتصام به ، حتى انك قلّ ان تجد قصيدة من شعره في الأُلوهية الآلهية ليس عليها مسحة من لهجة أنبياء اليهود في أسفار التوراة ، ولهذا قلنا فيما تقدم انه كان يتجه الى محاكاة الأنبياء ، واليك قوله في بعضها اذ هو في المطهر يخاطب وطنه بلدة فلورنسا — في الأغنية السادسة — .

« كم من مرة منذ العهد الذي تعلمينه ، بدّلت كل التبديل شرائعك ودراهمك ومذاهبك وعاداتك ، انك تتذكرين ذلك حق التذكر ، ولست عمياء وستجدين ذاتك كتلك المريضة التي لم تكن تجد راحة الا بآلامها في تقلبها على جراحها .. »

ودونك قول السيد المسيح :

« اورشليم اورشليم ياقاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليها ، كم من مرة أردتُ ان أجمع اولادك فيكِ كما تجمع الدجاجة فراخها . » ومثل ذلك قول أرميا وأشعيا قبله .

ويفتتح اغنيته الاولى من السماء هكذا :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« المجد لمحرك الأشياء كلها ، من يملأ الاكوان وينير بعضها على درجات متفاوتة .

« في السماء التي تنالُ اعظم نصيب من نوره ، كنت وعاينت اشياء لا يستطيع ان يعيدها النازل من فوق . »

اما هذه لهجة انبياء اليهود ؟ ولا عجب في ذلك فان غرض دانتي من تأليف الالهوبة — كما صرح هو بذلك — « ان ينتزع الاحياء من تعاستهم في هذه الحياة وان يقودهم الى السعادة الخالدة » وقد ضمنها من الآراء العلمية والمعتقدات الدينية والمذاهب الفلسفية ، والحوادث التاريخية ، وأحوال المجتمع لعصره في قطره ، ماخلد اسمه في تاريخ الامم الغربية حتى عدّوه أشعر شعراء الطليان ، واحد افراد شعراء الدنيا ، غير انه لم يسلم من ايدي النقاد . ولا بدع فالكمال لم يقسم لاحد من البشر الى يومنا هذا ، ولو شئنا ان ننتقد ما ضرب عنه صفحًا كثير من نقاديه لطال بنا مجال القول . ولا سيما اننا لا نتعرض في هذه الرسالة الا لموازنة بين الالهوبة الالهية ورسالة الغفران وبين صاحبيهما من حيث الحياة العلمية والاخلاق ومكانهما في المجتمع الانساني بل في وطنيهما وبين قوميهما لعصريهما .

وحسبك ان تعلم انه استعان في هبوطه الى جهنم وفي معراجه على المطهر بروح فيرجيل شاعر اللاتين وهو في مذهبه من اهل النار لانه كان وثنيًا كما تعلم ، بل كان يدعوه بأبي وبالمعلم وبامرشدي الحكيم . ويسأله إلهامه الثبات والصبر والشجاعة ، والعقل والفصاحة . ولا يخفى ما في ذلك من التناقض ، اذ كيف يجوز له وهو النصراني الكاثوليكي المتحمس الى اقصى التحمس الديني ، ان يصاحب ويستعين ويسترشد بروح ملعونة خبيثة هي روح فيرجيل الوثني التي قُضي عليها في اعتقاده ان تخلد في عذاب النار ، وان ينادي صاحبها يابي ويامرشدي ، وان تصعد معه في معراجه على المطهر ، وهو مكان الابرار الصالحين يمكثون فيه كما هو معلوم برهة من الدهر ريثما يتطهرون فيه من الأوزار ، وكيف وفق في منطقه بين تلك المقدمة وهذه النتيجة ؟ .

على ان دانتي لم يكن مبتكرًا كما ذكرنا غير مرة وكما أجمع رأي النقادين البصيرين في كتاباته ، بل كان التقليد سجيةً من سجاياه ولذلك تراه يسمي كويدي كونيجيلي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المشترع من اهالي بولون ابي ايضاً وهو سابقه في الطريقة التي دعيت لعصره بالانشاء الحلو الجديد ومثل ذلك يدعو فيرجيل اباه ، يريد بذلك ان يسميه اهل عصره خلف فيرجيل ، لشهرته البعيدة في الشعر اللاتيني ، ولشعره هو في الانشاء الحلو الجديد كما كانت تسمى يومئذ اللغة الطليانية .

وقد يقال انه كرر كثيراً قراءة سفر الرؤيا المعروف برؤيا يوحنا ورغب في محاكاته ، ولكن ينفي هذا القول ما تحقق من صلابته في دينه وذهابه فيه الى أقصى حدود الغلو ، فلا يُعقل انه يتحرى محاكاة سفر من اسفار التوراة او الانجيل .

وزعم بعض شراحه ومنتقديه (ولا علم لهؤلاء برسالة الغفران بل ولا باسم ابي العلاء) ان الروايات كانت شائعة في تلك الأقطار لعهد دانتي عن عروج بعض القديسين في الاعصر الاولى للمسيحية على السماء او اختطافهم وهبوط بعض منهم الى جهنم ، وكلها من الخرافات الموضوعة التي كان يتنا لها السذج والعجائز البله في اول شيوعها للتبجل والإرهاب ، ثم مازالت تتجسم منذ القرن الثامن قرناً فقرناً ، حتى بلغت في القرن الثالث عشر من جسامة الوصف والإرهاب والتهويل عن العذابات التي تصيب اهل الجحيم ما لا يحيط به واصف ، وان هذا مادعا دانتي الى نظم أُلعوبته . وقد يكون في ذلك شيء من الحقيقة لما اطال في جحيمه من وصف التعذيب فألهب دماغه باختراع وحوش وأفاعٍ وصنوف نيرانٍ قاتمة مظلمة سامّة واهوية نارية جليدية الى مالم يسبقه اليه سابق وقد لا يلحقه لاحق . الا ان احتذاء اولئك الراوين والمؤلفين يقف به عند هذا الحد من وصف مشاهدة العذاب والغبطة ، اذ ليس فيه سوى روايات عما عاين اولئك المزعوم صلاحهم في السماء او جهنم ، وليس فيه تخييل شعري ولا سيما في جهنم ووصف العذاب والنيران مما تستنكّ من سمعه الآذان . وان ما تناقله الناس في اي قطر من الأقطار حتى يومي مبتذلاً ترويه عجائز الحي ، ليس بالذي يُتهافت على نظمه شعراً . ولاسيما اذا لم ينطو على حكمة ينظمها الشاعر بلفظ انيق ، او وصف شيء من مظاهر الطبيعة او غيرها مما تنبسط له النفس كالحسن والغرام . واما وصف الفردوس بما لا يخرج عن ماذكرته كتب الأديان وبما روي عن بولس الرسول او بما ذكره يوحنا في رؤياه وبما روي عن غيرهما على مرّ ثلاثة عشر قرناً الى عصر دانتي ، كل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك لم يبق وصفاً لواصف على ذلك النحو او زيادة لمستزيد ، فما عسى ان يقول دانتي بعدهم او يجيد ؟ .

فاذا أنعم الناقد النظر فيما بسطناه لم ير بداً من القول معنا بان دانتي قرأ رسالة الغفران العربية او ترجمتها ورأى ان يقلدها على سجيته ولا سيما ان قرأ العربية بل اللاتينية نفسها لم يكونوا لعهده الا جماعة قليلة العدد ، واقل منهم من كان يقرأ الكتب المترجمة عن العربية او العبرية .

وليس قصدنا بهذه الموازنة الحطّ من قدر دانتي ببيان سرقته الموضوع من شاعرنا المعري ، فقد سرق الشعراء قبل دانتي وبعده وسيسرقون الى يوم الدين . وهو نفسه لم يكن مبتكراً كما ذكرنا غير مرة ، بل لنُعلِم نفراً يجهلون مدى آداب لغتنا ويكتفون بعلمائنا . ان انفس ماخلدته العبقرية من الصناعات الجميلة وهو الأُلعوبة الالآهية التي يفاخر بها ثمانون مليوناً من البشر او يزيدون بل قل اور با باسرها ولا تخف غلواً في إضافة اميركا اليها واكثر اليابان وحسبك ماقالوه يوم اليوبيل العظيم لمرور ستمائة سنة على وفاة مؤلفها دانتي واعترافهم بالإجماع انه ثالث شعراء الدنيا منذ خلق الناس خلا شعراء العرب ، اذ لم نجد للامم الفرنجية الى اليوم من استطاع ان يقدر الشعر العربي حق قدره من سائر المستشرقين ولا من نظم بيتاً بالعربية . فهم اذا تكلموا عن الشعر والشعراء كان كلامهم عن اللغات اليونانية واللاتينية والسكسونية وسائر لغات اور با ، وان قالوا عامة ، اللغات او عموم الامم ، نقول ان اعترافهم بتلك العبقرية وتفاخرهم بالالعوبة الالهية يعود بالحقيقة للمبدع المبتكر الحقيقي وهو ابو العلاء المعري صاحب رسالة الغفران واليك الدلائل والبراهين الآتية .

(للبحث صلة) قسطاكي الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net